مجلة المعجمية - تونس

ع 5-6

1990

دور العاميّة والسّاميّات في المعجم العربي التاريخي

بحث: ا. د. فيديركو كورينطي

من البديهي أنّ تأليف معجم عربي تاريخي يعد مباشرة طماحة لن يتسنى إنجازها بدون تخطيط مصيب وتنفيذ محكم وتمويل غير ضنين. ولا يخفى على أحد أن إلقاء الضوء المطلوب على قصّة كل لفظ عربي، بما يقتضيه شأن الثقافة العربية وأهميتها العالمية من الدقة والاستيفاء في الشواهد والتأصيل، ليس أمرا هيّنا وذلك نظرا لطول تاريخ لغة الضاد وبعد اتساعها على ثلاث قارات، وهما خصلتان لم تشاركها إياهما فيما مضى من الزمان إلا أربع لغات عالمية أخرى، وهي اليونانية واللاتينية والسنسكريتية والصينية الكلاسيكية، فأما اللغات الأوربية الحديثة الرئيسية التي قد تمّ لبعضها إنشاء معجم تاريخي بعد لأي فإن جميعها أقصر عمرا من العربية وأحدث عهدا بإنتاج أدبي منتشر على أقاصي المعمورة.

وقد لخصنا بهذا الكلام مفهومنا عن المعجم التاريخي الذي يجب في نظرنا ان يجمع بين ذكر أصول ألفاظ اللغة وبين الادلاء بالشواهد المؤرخة لاستعمالها الأدبي والحواري اعتمادا على محتويات جميع المؤلفات

البـاقية إلى يومنـا هذا وعـلى كل ما جرى أولا يزال يجري على ألسنة النـاطقـين من كلام فصيح أو عامي وأصيل أو دخيل. وإن لم يكن المعجم العربي التاريخي الذي يقصد تأليفه على مثل هذا النمط فغني عن القول إنه سيكون معجما لبعض تاريخ العربية ولبعض العربية فقط ناقصا من حيث كلتا الصفتين، وأن منفعته مهما عظمت لن تخلو من ثلم خطيرة، لأن اللغة وحدة لا تتجزأ كيفما أرادت أوهامنا أو هي، كما يقول اللغويون البنيويون، منهج آلي متكوّن من مناهج متدرجة وعناصر متصلة لا يمس او لا يهمل بعضها دون بعض.

ونحن لا نجهل ان مثل هذا الاقتراح سيثير اعتراضات معقولة لدى المستمعين الكرام وعند المسؤولين عن تحقيق هذا المشروع، إذ قد يرى بعضهم العناية بالعامي والدخيل مقرونين بالفصيح الأصيل مجرد تضييع باطل للوقت والجهد والأموال بل واستهانة بكرامة الفصحى، وليس الأمر كذلك كما سيتضح فيما بعد. أو قد يحتج غيرهم بأن هذا المشروع على صفته المـذكـورة لن تفي بإنجازه أعمار عدّة أجيال من الباحثين مع ما يحتاج اليه من مساعدة غير منقطعة من طرف الأنظمة المنسّقة الممولة له، بحيث ينبغي أن تجعل له منذ البداية حدود واقعية، عملا بالمثل العربي الذي يقول «امدد رجلك على قدر اللحاف».

والحقيقـة اننا بكل صراحة مقتنعون بصحة الاعتراض الثاني، مائلون مع أصحابه إلى تحديد نطاق هذا المعجم، على الأقل في مرحلة أولى، من حيث استيعـاب مراجعـه وتعيين عدد المشاركين في أعمال إنشـائه ووجوب تعهد الانظمة المنسقة بإنتاج تأليف ذي حجم متفق عليه مبدئيا في مواعيد مسماة، وذلك لاعتبارات عملية واضحة، منها أن نجاح مشروع متوسط النطاق في غضون أجل غير بعيد خير وأنفع في قضية مستعجل فيها كهذه من طول الانتظار للتأليف الشامل الكامل الموعود بدون أجل مسمّى، ولا نقول هذا إلا بصفتنا مؤلفين لقواميس اللغتين العربية والإسبانية التي أكسبتنا بعض الخبرة في هذا المضمار حتى اصبحنا فيه ممن يدري من أين تؤكل هذه الكتف.

أمـا الاعتراض الأول، أي عدم مناسبة إدراج الألفاظ العامية والدخيلة في معجم تاريخي للغة العربية لكونها غير منتمية اليها، فلا يسعنا بكل صراحة ايضا موافقة ذلك الرأي ولا نحسب إسقاط ذلك الـرصيد اللغـوي المهم عن مضمون هذا التصنيـف، ولو على سبيل الاختصـار الاضطراري في مرحلة أولى، إلا خللا كبيرا فيما يراد من استيفائه وعيبا شنيعا في مبادىء تصنيفه ومنهجه.

ولمـاذا خروجنا الطارىء هذا هنا واليوم على المبدأ المطرد قبوله المعمول به حتى في قواميسنا نحن إلى الآن من أن معاجم العربية لا تحتوي على غير الفصيح أو على الأقل على غير الألفاظ المقيدة في الآثار المكتوبة ؟ إن للضرورة أحكاما قد فرضت علينا مثل ذلك التقصير، وإن كانت هذه المنـاسبـة غير صالحـة للتعـرض للفصـل بين حقوق الفصحى والعـامية، فإن الجـلي من جهـدنـا وحـرصنا على استعمال الفصحى في حديثنا هذا على الرغم من الرطانة والعجمة أننا من الذين لا يجدون لها بديلة فيما يخصّ أغراض الثقافة، إلا أن هذا التفضيل والإيمان بكفاءة الفصحى لمواجهة تحدّي الحاضر والمستقبل لا يضربان غشاوة على أبصارنا تعميها عن الحقائق الآتية:

1) لم يتوخّ اللغويون العرب القدماء، أي جامعو المعجم أو، كما قيل، اللغات من حامليها، طريقة انتقائية مطوّرة جدّا، على خلاف شأن النحـاة عند تمييزهـم للفصيح دون غيره، وهذا لسببين أولهما أنّ اكتشاف العشرات من القواعد الصرفية والنحوية المتجسّمة في متون اللغة الماثلة بين أيديهم كان أيسر بكثير من انتقاد درجة فصاحة الألوف من الألفاظ الموجودة فيها مع انعدام المعيار الفاصل، لما يثبت لدينا من أن إجمـاع كلام فصحـاء العـرب كان أتمّ على الاصـوات والصرف والنحو، مع وقوع خلافات تافهة فيها بينهم، منه على المعجم. وأما السبب الثاني في حيرة اللغويّين عند اختيار الفصيح من الألفاظ وتفرقته دون غيره او دون المحرّف من صيغه، وهو مترتّب على السبب الأول، فذلـك أنهم لنفس حيرتهم تلك ولرغبتهم الشديدة وتنافسهم في جمع

اللغـة لم يكتفـوا بما ألفوه من الألفاظ في متون القرآن الكريم والشعر المعتمد، وإنما تخطوها إلى كل ما نطق به العرب المسمّون بالثقات أو الحجـج، وأنى لنا أو لأولئك اللغويّين التأكد التام من تلك الثقة أو الحجة في كل حالة من الأحوال ؟

ومعنى ذلك أننا عندما نراجع معاجمنا العربية المشهورة نجد فيها ألوفا من الألفاظ العادمة الشواهد المستخرجة من ألسنة الناس مباشرة بحيث لا فرق بينها وبين كثير من أخواتها المنبوزة بالعاميّة إلا أن بدويا أكثر أو أقلّ فصاحة فاه بالأولى عوضا من الثانية عند مصادفته لغويا، وليس من الانصـاف ولا يليق بمنهج علمي أن نهمل كل الاهمال ما أهمله البدوي صدفة ولا أن نقبل كل الاقبال على ما تكلّم به غير واع إلى أهميّة اختياره وغـير مسؤول عما علّقـه منهـا عليه اللغـوي المقيّد لكلامه، ولكن العلم الصحيح يقضي بأن نعتني على حدّ سواء بما نقل اذاك وبما لم ينقل إلا أنه ظل متداولا غير مسجّل على مرّ الزمان إلى أن حظي بعناية أحد اللغويين الدارسين للهجات في القرن التاسع عشر أو في القرن العشرين.

إن كلاّ من الألفاظ المسمّاة بالفصيحة ومن أخواتها المنسوبة الى العـامية لعدم ثبتها في المعاجم أو في الأدب هي ألفاظ عربية أو على الاقل معربة ما دام العرب أيّ العرب قد أجروها على ألسنهم، وهي جديرة بالدراسة المعجمية، إن نُرد أن تكون هذه الدراسة وافية علمية غير مغرضة، إذ ليست اللغة إلا كالأمة من حيث حقّ الانتساب اليها، فمن عساه أن يعد عربيا إن اتخذنا شرطا للعروبة النسب العربي القح كابرا عن كابر الى عدنان ؟ ولعل في العاميات المحتقرة، كما سيتبيّن، كثيرا مما قد يساعدنا على إدراك أسرار الفصحى وعلاقتها بسائر اللغات السـامية بل ولنشـوئهـا كلغة مصطلح عليها لدى الشعراء والرواة في الجاهلية، وهي مبنية على أساس اللهجات المسماة بالعليا، وذلك الى جانب تولـد العربية التي دعيت نبطية في بادية الشام وسواد العراق، وهي أمّ العاميات الحديثة، وإن كانت لا تخلو من تأثر هام بالفصحى

عقب صيرورتها لغة رسمية للحضارة الاسلامية.

2) ليس حكم الدخيل ببعيد من حكم العامي، مادام شائع الاستعمال مطرده لدى العرب غير منحصر في مصطلحات أصحاب بعض العلوم والفنون، لاسيما منه ما لم يَنْبُ على هذا اللسان، فربّ دخيل قد هضمته العربية حتى لم يكد يشك أحد بنيها في أصالته، كالقصر والسراط والبنيقة المقتبسة من اللاتينية castra و strata و paganica، أو كالفندق والبطاقة واللصّ المقتبسة من اليونانية Pandokeîon و Pittakion و Lêstês أو كالسراج والرونق والدبّوس المقتبسة من الفارسية المحدثة أو الفهلوية čitrāy و rōynēk و dobazu أو كالبرهان والمشكاة والمنبر المقتبسة من الحبشية barhan و maškot و mänbär أو كالعشرات من المقتبسات الآرامية أو القبطية أو الهندية الأصل، فالأولى بنا أن نقول إن العربية، على خلاف ما وصفها به بعض الناس من الانعزال في صحارى الجزيرة وجبالها ومن الكراهية للتأثر بلغات وحضارات أخرى، كانت على عكس ذلك وبحكم الوضع الجغرافي ولاحتراف كثير من أهلها للتجارة عرضة للاتصال المستمر بأمم أخرى فقد اقتبست عند اللزوم نصيبا وافرا من معاجمها. وحسبنا مثلا ودليلا على ذلك أن عدد الألفاظ المصرية القديمة في العبرية على الرغم من إقامة أهلها بمصر أقل من المقتبسات المصرية في العربية الناتجة عن العلاقات التجارية بين ضفتي البحر الأحمر، ومنها السيف والصندوق والتابوت والطوب والبصل والفول والتمساح والبلشون الخ، وكذلك الموسى واسم النبي موسى، وهما لفظ واحد قد أطلق عليه لشدّة خلقه المشهورة في التنزيل، وكفى بهذا حجّة على أن الدخيل المعرب، حديثا كان أو قديما، لابدّ من اعتباره عند الدراسة المعجمية التاريخية، أولا لإثبات وجوده وظروف استعماله كسائر الألفاظ، وثانيا لارجاعه الى أصله الأول الخفي على الانسان، وإن كان مثقفا، أحيانا كثيرة.

فمن الواجب، بناء على هذا، أن تكون الدراسة المعجمية التاريخية مقارنة في آن واحد حتى تكون وافية، مهما كان نطاق التأليف

المقصود محدودا متوسطا كما لمحنا إليه سابقا. ولا يمكن المقارنة في اية لغة من اللغات، فضلا عن العربية التي هي أحوج الى ذلك لظروفها الخاصّة، على غير أساس اعتبار العامي والدخيل مع الفصيح والأصيل. نضرب مثلا لذلك ما يجب ان توردة مادة (عود) في مثل هذا المعجم، فلا يكفي من راجعها ان يجد تحتها كالمعتاد جميع الألفاظ المشتقّة عن هذا الأصل مع إضافة شواهدها التاريخية بأول وقوعها وبأدوار تطورها المدلولي ودون اية إشارة الى (عاد) اللهجية القديمة والحديثة بمعنى (بعد)، وهي اشتقاقها بإسباق الباء، أو بدون ذكر الشواهد من اللغات الساميّة المحتفظة بـ (عاد) هذه، فالغالب على الظن أن شيوعها في الحميرية هو السبب الذي أوهم المضريين أنها قحطانية حتى أخرجها النحاة عن الفصحى، وإن كان المعجم لا يفيد بمثل هذه المعلومات فإن تأصيل الكلمة بقي غامضا، وقد يستغلق معناها على القارىء في جملة مثل «عادها ما انفتحت»، وذلك على الرغم من اطلاعه على المرجع وتأريخه.

وإذا قبلنا مبدأ وجوب تضمن المعجم التاريخي لهذا النوع من المقارنة والتأصيل اللذين تكتمل بهما هوية اللفظة وقصتها، فماذا ياتراكم يكون منهج تأليف مثل هذا المعجم أو من أين يجلب مصنفوه جميع هذه المعلومات المطلوبة المنتشرة حاليا في مئات بل ألوف من المقالات والكتب من آثار المستشرقين أو في ألسنة العرب المعاصرين وهي غير مقيّدة كتابيا في الغالب ؟

لسنا نطلب لبن الطير. يا ليتنا استطعنا أن نعهد الى ألوف من الخبراء في الدراسات الميدانية بتسجيل اللهجات العربية الحديثة المهددة بالانقراض أو بالتغير السريع في بيئة لم تعد تحول دون اختلاطها بلهجات أخرى قبل ان تذهب اهم خصائصها وجزء كبير من معاجمها إلى غير عودة، ولكننا نعلم ان هذا حلم لن يتحقق ورغبة مستحيلة التلبية، وحتى لو كان هذا الامر بوسعنا لما جاز أن نرجىء تأليف المعجم التاريخي الى تتمّة تلك المهمّة، كما لا يجوز تسويفه إلى ما بعد استخراج

جميع الفوائد المكنونة في الساميّات وفي غيرها من اللغات المجاورة للعربية التي قد تمكّننا من حلّ ألغازها المعجمية، وانها في استطاعتنا أن نكتفي في المرحلة الأولى المومأ اليها المرّة بعد المرّة بحل وسط في هذا الميدان ايضا.

نعني بذلك أن ثمة عددا لا يتجاوز الخمسين من المؤلفات المعجمية الأساسية الجاهزة الخاصة باللهجات العربية من أمثال قاموس بارتيلمي للشام وقاموس ميرسيه للمغرب الخ، وكذلك في الساميّات والفارسية والقبطيّة التي يمكن الاعتماد عليها لأهل الدربة بالدراسات اللغوية المقارنة بدون جهد جهيد بحيث يتمّمون بذلك في فترة زمانية وجيزة نسبيا المعلومات اللغوية والتاريخية المعدّة لهذا التصنيف حتى يكتمل ويفي بالمقتضيات المنهجية على ما يرام.

إن خلاصة كلامنا أن مباشرة تصنيف معجم تاريخي للغة العربية عمل جبّار طالما افتقد إنجازه المثقفون العرب وغيرهم ممن يعتنون بها ويرونها تراثا ثمينا للإنسانية كلها، مرحبين ببشرى الشروع في تحقيق هذا المشروع الذي يستحقّ إعانة أعلى المؤسسات الثقافيّة العربية والعالمية. ولعل خير طريقة لإنجازه ليس التخطيط الرامي إلى استيفاء الموضوع بالمرة بإصدار كتاب نهائي بعد أجيال، ولكن المستحسن تقسيم المشروع إلى أشواط يكون أولها تحضير تأليف متوسط السعة قابل للنموّ والزيادة في طبعات متتالية على حسب الامكانيات المتوفرة والاحتياجات المحسوسة في كل حين، على انه يكون منذ البداية تأليفا يستهدف اتّباع منهج لغوي سليم حديث متعدد الأوجه معتمد على المقارنة والتأصيل لجميع الألفاظ التي استعملها العرب في أي مكان وزمان وتسجيله.

إن طالب العلم يستغفر له، فاستغفروا لنا واغتفروا لنا هفواتنا الكثيرة لغة ومعنى، إذ لم يحملنا على جسارتنا هذه سوى رغبتنا في المشاركة، ولو بنصيحة بسيطة، في هذا المقصد الحميد الذي دعينا من

أجله إلى حضـــور هذه النـدوة تحت رعـاية جمعية المعجمية العـربية المشكورة. ولكم منا السلام والامتنان.

فيديريكو كورينطي